المحاضرة السابعة

موسيقى الرباعيات

أولا: تعريفها:

الرّباعية[1] هي أحد فنون الشعر، وتسمى أيضا الدوبيت وهي لفظة مكونة من كلمتين - إحداهما «دو» بمعني اثنين، والأخرى «بيت» بمعني بيت الشعر. وقد جاء في معجم كشاف اصطلاحات الفنون : «هو بيتان من الشعر متفقان في الوزن والقافية، وليس من شرطه موافقة المصراع الثالث»[2]

ثانيا: تاريخ الرباعيات:

اختلف بعض أهل الرأي في أصل الرباعيات، فانقسوا إلى فريقين:

الرأي الأول: يرى أصحاب هذا الرأي أنّ الرباعيات قديمة في الشعر العربي، ولكن الشعراء لم يخصّوها بوزن معيّن، بل نظموها في أغلب أوزان الشّعر، ويجعل الأصفهاني أقدم من نظم في الرباعيات علس ذو جدن الحِمْيَرِي، فمن رباعياته قوله:

ما بال أهلك يا ربـاب　　خـــزرا كأنّهم غضاب
إن زرت أهلك أوعدوا　　وتهـرّ دونـــهم كـلاب

كما يشير أصحاب هذا الرأي إلى أنّ شعراء الفرس قد أخذوا الفنّ من الشعر العربي، لكنهم تخلوا فيه عن الأوزان العربية، وراعو فيه طرائق مختلفة في بنية قوافيهم. ويستدل بعضهم بوجود الرباعيات في الشعر الجاهلي، من خلال إحالتهم إلى ما نظمه أحد الشعراء الجاهليين هو عدي بن زيد، حيث قال:

أيّها الركب المخبّـون　　على الأرض المجدّون
فكـــما أنتـمُ كنّـــا　　وكمـــأ نحـــن تكونون

الرأي الثاني: وهو الرأي السائد والغالب، ويؤكّد هذا الرأي أنّ الرباعيات ظهرت أوّلا في الشعر الفارسي[3]، ثمّ انتشرت فيما بعد عند العرب. حيث يكاد المحدثون يجمعون على فارسية الدوبيت، فهذا (بْرَاوْن) يوشك أن يجعل من الرباعيات أقدم ثمرات العبقرية الفارسية. وفي هذا الشأن يشير شمس الدين قيس الرازي في معجمه (المعجم في معايير أشعار العجم) أنّ الشاعر الفارسي عبد الله بن جعفر بن محمد السمرقندي (260- 329هـ) والمدعو بـ (**الرّودكي**) هو مكتشف وزن الدوبيت، وذلك من خلال نظمه لأحد أشعاره على نسق عبارة موسيقية جاءت على لسان صبي كان يخاطب جوزته بعبارة رقيقة صدرت منه عفو الخاطر، وعلى السليقة، فجعل يهتف بها قائلا: غَلْتَان غَلْتَان همى رَوَدْ تَابُنِ كَوُوْ؛ أي (تتدحرج، تتدحرج، ماضية إلى قعر الحفرة)، فراح **الرّودكي** يعرضها على مقاييس العروض فوجدها من فروع الهزج، فنظم على نسقها أشعارا اقتصر من كلّ قطعة منها على بيتين. وقد أطلق الرّودكي على هذه المحاولات الشعرية مصطلح (الترانة) نسبة إلى الصبي أو الصبوي. وبناء على هذه الحادثة يؤرّخ لنشأة الرباعيات إلى **أواخر القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع الهجري**[4].

---

[1] - سمّيت بالرباعية مع كونها بيتين بغية تمييزها عن المثنوي الفارسي الّذي يتكوّن بيته من شطرين في بيت مصرّع.
[2] - التهانوي، محمد علي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ج1، ط1، بيروت: مكتبة لبنان، +1996، ص 842.
[3] - في الفارسية، لا يخرج وزن الرّباعية عن قوله «لا حول ولا قوة إلا بالله. بكار، يوسف (2004 م .(جماعة الديوان وعمر الخيام) الطبعة الأولى). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر. صفحة 49.
[4] - كامل مصطفى الشيبي: ديوان الدوبيت في الشعر العربي (في عشرة قرون)، منشورات الجامعة الليبية، كلية التربية، سنة 1392هـ/1972م، ص19

ثالثا: وزن الرباعيات:

يعاني هذا الفنّ كغيره من الفنون المستحدثة في الشعر العربي من إشكاليات في بناء وزنه، ونستثني من هذه الإشكاليات الرباعيات الّتي بنيت على الأوزان الخليلية، أمّا تلك الّتي خرجت عن هذا الأوزان فقد اختلف النقّاد والعروضيون في تحديد أوزانها، ولعلّ أشهر هذه الأوزان وزنان هما:

1- الوزن الأول: يكاد يتفق أهل العروض أنّ وزن الدوبيت هو: **(فَعْلُنْ متفاعلن فعولن فَعِلُنْ).** وقد حدّد له شهاب المصري مفتاحه حيث قال:

دوبيت لنظـــم فارس ميزان ما خصّصهم بكسبه الإمـكان
فَعْلُنْ متفاعلن فعولن فِعْلُنْ (بل ران على قوبهم ما كـانوا)

وقد جعلوا لهذا الوزن **أنواعا**، منها التام والمجزوء والمنهوك، وله من الأعاريض خمس ومن الأضرب سبعة:

التام له عروضان وأربعة أضرب:

أ- عروضه الأولى صحيحة(فَعِلُنْ) ولها ضربان؛ الأول مثلها(فَعِلُنْ)، الثاني: مذال (فَعِلُانْ).

ب- عروضه الثانية مضمرة(فَعْلُنْ) ولها ضربان؛ الأول مثلها مضمر(فَعْلُنْ) ، الثاني مسبّغ (فِعْلُانْ).

المجزوء: له عروضان وضربان:

أ- الأولى صحيحة (فعولن) ولها ضرب واحد مثلها

ب- الثانية محذوفة (فعو= فعل) ولها ضرب واحد مثلها:

المنهوك فله عروض واحدة صحيحة (متفاعلن) ولها ضرب واحد مثلها.

وممّا يطرأ على حشو هذه الأجزاء أنّ **متفاعلن**، قد تُسكّنُ تاؤها بالإضمار، وقد يُزاد بعد عينها ياءً، فيستعملونها **متفاعيلن**، وقد يحذفون النون منها عند زيادة الياء[5]

2- الوزن الثاني: وإلى جانب هذا الوزن المتفق عليه عموما، ذكر بعضهم وزنا آخر محورا من الوزن السابق هو: **(فَعْلُنْ فَعِلُنْ مستفعلن مستفعلن)**[6]**.** وقد جعلوا له ثلاث أعاريض وثمانية أضرب.

1- **تام**: له عروض واحدة مطوية (مفتعلن)، ولها ثلاثة أضرب: مطوي مثلها، مقطوع (مفعولن)، مذال (مستفعلان).

2- **مجزوء**: له عروض واحدة مرفّلة (مستفعلاتن)، ولها ضرب واحد مثلها.

3- **مشطور**: عروضه هي الضرب، وهي إمّا مطوية (مفتعلن)، أو مطوية مذالة (مفتعلان)، أو مقطوعة (مفعولن)، أو مقطوعة مذالة (مفعولان)

☒ ملاحظات:

وقد حاول شمس الدين النواجي استخراج وزن الدوبيت من أوزان الخليل، فاستخرجه من بحر الرجز الّذي دخله الخزم[7] ، كما دخل جزءه الأول الطي، ودخل جزءه الثاني الخبن، ودخل جزءه الثالث

---

[5] - ابن أبي شنب: تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب، ص114.

[6] - ولقد ذكر بعضهم أن الوزن الّذي ذكره العروضيون الفرس من أنّه: **مفعولُ مفاعيل مفاعيلن فاع**

وقريب من ذلك ما جاء به حازم القرطاجني في منهاجه من أن شطره المستعمل هو: (مستفعلتُن مستفعلن مستفعلن) وقد يجيء الجزء الأخير على مستفعلن (وهو الأصل)، ولكن في الأقلّ. ويستعمل أيضا مقطوعا، فيصير إلى (مفعولن)، وقد يضمرون السبب الثقيل في الجزء الأول فيصير إلى (مفعولاتن)6. وقد وضع بعضهم ضابطا لهذا الوزن هو **في نغمتنا الميزان غنّى ورتن مستفعلتن مفعولن مستفعلن**

[7] - زيادة سبب خفيف في أوله.

التشعيث، وقد تأتي العروض مطوية وكذلك الضرب[8]. كما حاول استخراجه، أيضا، من بحر الوافر، غير أنّه أعقص[9] الجزء الأول والرابع، فصار (**مفعولُ**)، وأعقل الثاني والخامس فصار (**مفاعلن**). فصارت صورة شطر البيت: **مفعولُ مفاعلن فعولن**[10].

رابعا: لغة الدوبيت:

الأصل في الرباعيات أو الدوبيت أن يكون معربا من حيث الألفاظ والتراكيب، ولكن ميل الشّعر بوجه عام إلى التأثّر باللغة المحكية في أساليبها في العصور المتأخّرة جعل اللحن والعامية يدخلان إليه. وقد كثر الدوبيت الملحون حتّى ليكاد يطغى من حيث الكمّ على الفصيح. ويعد الدوبيت الصوفي هو أكثر الأنواع ميلا إلى العامية واللحن.

خامسا: أشكال الرباعيات:

اختلف النقاد في تحديد أشكال الرباعيات فقد جعلها بعضهم 43 قالبا[11]، غير أننا سنكتفي بما أشار إليه مصطفى صادق الرافعي الّذي جعل الدوبيت باعتبار القوافي خمسة أشكال:

1- **الرباعي المعرج**: ويشترط في قوافيه أن يكون بين الثلاثة منها أو [بين] أربعتها الجناس التام، كقول الشاعر: يا من بسنان رحمه قد طعنا والصارم من لحظة قطعنا
ارحـم دنفا في سنه قد طعنا في حبك لا يصيبه قط عنا

2- **الرباعي الخاص:** ويشترط فيه أن تكون كل قافيتين متقابلتين بينهما جناس تام - ويقولون إن مثاله: أهـــوى رشا بلحظة كلمنا رمزا وبسيف لحظة كلمنا
لو كان من الغـرام قد سلّمنا ما كان لـــه بيده سلّمنا

3- **الرباعي الممنطق:** وهو ما يسميه بعضهم بالمرصّع؛ وهو ما كان أشطره الأولى تامّة والشطر الثاني عبارة عن فقرة تجيء على وزن (فِعْلن فعلن)، وقد يكون هذا النوع من الرباعيات مصرعة جميع أشطره، كما قد يكون من النوع المخالف نحو قول الشاعر:

قد قد لهجتي غـــــرام ونشر والقلب ملك
من كان يراك قال ما أنت بشر بل أنت ملك

4- **الرباعي المرفّل**: وهو الّذي يتضمّن رباعية تامّة المعنى، وإلى جانب كلّ مصراع منها فقرتان، نحو قول الشاعر: بدر إذا رأته شمس الأفق كسفـت ورقى في يوم أحد
عوّدت جماله بربّ الفلق وبمـــا خلـقا من كل أحد

5- **الرباعي المردوف**: وهو الّذي يتضمّن رباعية تامّة المعنى، وإلى جانب كلّ مصراع منها ثلاث فقرات تجيء على وزن (فِعْلن فعلن)، نحو قول الشاعر:

يا مرسـلا للأنام جـــاها وحـمى ها أنت لنا عـزا وهـــــدى في أيّ مـدد
يا أفضـــل من مشى بأرض سما يا شافعنا في الحشر غـدا غوثنا ومدد

---

[8] -. شمس الدين النواحي: الفوائد العروضية، ص14 وما بعدها نقلا عن صلة ديوان الدوبيت، ص14.

[9] - العقص: اجتماع الخروم والنقص، والخرم حذف أول الوتد المجموع من أول البيت، والنقص اجتماع الكف والعصب.

[10] - شمس الدين النواحي: الفوائد العروضية، ص9.

[11]- عمر خلوف: البحر الدبيتي (الدوبيت)- دراسة عروضية تأصيلية جديدة، مكتبة الملك فهد الوطنية، السعودية، ط1(1418هـ/1997م)، ص95.